محمد البشير الابراهيمي

نقيد العروبة والاسلام

((بقلم القائد العربي المجاهد عبد الله التل))

حاكم القدس سابقا

الزمان ، الثلث الاول من القرن العشرين ، والمكان جزء عزيز من ديار العروبة والاسلام هو الجزائر ، واوضاع البلاد السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية يصورها :

- استعمار فرنسي عمره مائة عام ، قضى على كيان البلاد السياسي ، وادخل في روع الغرب المستعمر ان الجزائر فرنسية لا نريا — بحسب رأيه — امتداد لارض فرنسا يفصل بينهما البحر ، وتتغلغل في نفوس عدد كبير من عرب الجزائر انفسهم فجعلهم بمختلف الوسائل ، يردد ون دعوى فرنسا الفاجرة ومناقيها العجيب المستهجن .

واقتصاد وطني منهار ، بعد ان اغتصب الفرنسيس في مدى قرن كامل ملايين الافدنة من الارض الخصبة ، ونهبوا موارد البلاد وخيراتها ، واحتكروا التجارة والزراعة والصناعة ، وحولوا شعب الجزائر الى قطيع من العبيد لا عمل له سوى تأمين رفاهية السادة المستعمرين ، وتموين فرنسا بالخمر الذي يستقطر من اعناب كرم الجزائر ، وتموين غرب اوربا بالقمح الذي تنبته حقول الجزائر .

وثقافة فرنسية استعمارية ، هدفها تخريب العقول والنفوس ، وتحطيم الشخصية العربية الاسلامية ، والقضاء على اللغة العربية لانها لغة القرآن ، وانشاء الامية حتى زادت نسبتها في الشعب الجزائري على ٩٠٪ ، وخلق الدسائس والفتن لتفريق الشعب واقناع البربر انهم جنس آخر يختلف عن عرب الجزائر .

وحرب سافرة ظالمة لا رحمة فيها ولا هوادة ، تشنها فرنسا " ام الحرية " على الدين الاسلامي الذي يدين به الشعب العربي في الجزائر ، كما يدين به الشعب العربي في المغرب وتونس وليبيا بلا استثناء ، حتى اننا لا نكاد نجد جزائريا او مغربيا او تونسيا او ليبيا واحدا يدين بغير الاسلام ، والذين يعيشون في هذه البلاد من غير المسلمين هم من يهود الغرب ومسيحييهم . ومع هذا فقد عمدت فرنسا طوال سني استعمارها اللئيم ، الى محاربة الاسلام في لغة الاسلام ، لغة القرآن . كما حاربته بنشر الخرافات والبدع وتشجيع الزوايا والطرق التي يديرها مسلمون من عملاء فرنسا مثل قدور بن غبريط . وحاربته منذ اليوم الاول الذي دنست فيه اقدامها ارض الجزائر بهم صادرت اموال المسلمين واوقاف المسلمين ومساجدهم وحولت بعضها الى كنائس .

وحاربته بهم جعلت من حكوماتها وحكامها اوصياء على الاسلام ، ووضعت القوانين التي تعطي الادارة الفرنسية حق الاشراف على الشؤون الاسلامية ، وسيطرت بذلك على اركان الاسلام الاربعة ، الصوم والصلاة والحج والزكاة .

فاصبح الشعب الجزائري المسلم يصوم ويفطر ويعيد بحسب الاوامر الذي يلقيها المدير الفرنسي . ويصلي وراء الائمة الذين يختارهم الحاكم الفرنسي من بين الخونة والجواسيس ويحج الى بيت الله الحرام بالرخصة الفرنسية التي لا تعطى الا بالرشوة ولعدد زهيد من افراد الشعب .

ويخرج بعضه في الخفاء ، زكاة رمزية ، لانه شعب فقير معدم ، نهب الفرنسيس وطنه وثروات بلاده فلم يبق عنده مال يزكيه .

ولم تستطع فرنسا السيطرة على الركن الخامس وهو الشهادة ، لان الانسان قد يتلوها في سره ومن غير ان يسمعها الجندي الفرنسي .

- حاربت فرنسا الاسلام الذي جاء به القرآن الكريم وحمل رسالته محمد صلى الله عليه وسلم ، واخترعت بدلا عنه اسلاما جديدا مبنيا على البدع والخرافات واسمته (اسلام جزائري) .

- وفرنسا التي ادعت العلمانية ، وفصلت الدين عن الدولة رسميا سنة ١٩٠٥ لم ترض في الجزائر الا بالاشراف التام على الدين الاسلامي . ولم تسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، وحجرت على حرية الدين الاسلامي وآدابه وافكاره ، وفي الوقت نفسه اباحت نشر الفساد والرذيلة والاباحية والانحلال والكفر والالحاد .

على مثل هذه الصورة الكئيبة كانت الجزائر في الثلث الاول من القرن العشرين ، يوم نهضت العناية الالهية بتكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لتقود معركة التغيير الجذري في حياة الشعب العربي في الجزائر ، بقيادة العالم المرحوم عبد الحميد بن باديس ومن بعده شيخنا الجليل المرحوم محمد البشير الابراهيمي ، الذي ظل حاملا راية الجهاد اكثر من خمسة وعشرين عاما ، الى ان انتقل الى جوار ربه في شهر المحرم المنصرم ١٣٨٥ — مايو ١٩٦٥ .

ولقد كان البشير الابراهيمي بما وهبه الله من علم وفضل والمام كامل باللغة العربية وآدابها وفنونها واسرارها ، وقدرة خارقة على التوجيه والوعظ والاقناع خطابة وكتابة ، وبما اوتي من مواهب وطاقات عامية وفكرية وعملية وسياسية لا نظير لها ، مؤهلا لحمل راية الجهاد والذود عن شعب الجزائر المستعبد ومن دينه المضطهد . فحملها بشجاعة وامانة واخلاص في ظروف عصيبة واحوال رهيبة .

فمن الناحية الجزائرية قاد البشير الابراهيمي حملة الاصلاح الديني لتطهير الاسلام من الخرافات والبدع التي ألصقها به الفرنسيس واليهود وعملاؤهم من العرب . وتولى مهمة تنوير العقول وتبصيرها بحقيقة الدين الاسلامي وآدابه وتاريخه ، فقضى على الدين الزيف الذي اخترعه الفرنسيس واسموه (اسلام جزائري) .

طالب بفصل الدين الاسلامي عن الحكومة ، اسوة بالدين المسيحي الذي تركت له الحرية التامة في ممارسة طقوسه وشؤونه . ونديد بالسياسة الاستعمارية الغبية الغاشمة التي ترمي من وراء بسط سيطرتها على الدين الاسلامي ، الى القضاء على الاسلام .

طالب باعادة اوقاف المسلمين التي اغتصبها الفرنسيس على مر السنين ، وهدفهم تجريد الاسلام من وسائل دعمه ونشره وبقائه .

طالب بحرية التعليم العربي واعتبار اللغة العربية لغة البلاد الرسمية . كما طالب باستقلال القضاء الشرعي عن القضاء الفرنسي المبني على اسس تبيح الرذيلة وتشجع الانحلال .

حارب الحزبية لانها اداة تمزيق ، وداء وبيل ينخر في جسم الشعب ، وبخاصة العلمانية منها ، وتلك التي تشجع الكفر والالحاد . وكان رحمه الله بعيد النظر حينما اعتبر الحزبية اشد خطرا على المسلمين من المستعمر نفسه .

سخر من سياسة فرنسا التي كانت تسعى الى التفريق بين العرب والبربر . واثبت ان الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي في سلسلة من الزمن امتدت ثلاثة عشر قرنا قد اصبحت عربية . واكد ان وحدة الشعب في الجزائر راسخة خالدة سداها وحدة الدم واللسان ولحمتها الدين الواحد وروحانية الاسلام .

تحدى سياسة الاندماج التي نادت بها فرنسا بصفاقتها وحماقتها ، واثبت بشجاعته وقوة حجته ، زيف دعوى فرنسا وسخف منطقها . ودلل على عظمة الاسلام وطاقاته الكامنة التي تحصن شعب الجزائر المسلم من الانصهار والذوبان والاندماج .

قاوم هيئات التبشير ومن ورائها سلطات الاستعمار ، واليهودية العالمية ، وثراء الفاتيكان وبذله وسخائه .

تحدى للغزو الفكري الاستعماري الذي يشكك المسلمين في تاريخهم وتراثهم ، تمهيدا للقضاء على مقومات وجودهم ، وجعلهم كمية مهملة في ميزان القوى العالمية .

فعل البشير الابراهيمي كل هذا واكثر منه في الميدان الجزائري الداخلي . واصاب نجاحا كبيرا في معركة اللغة العربية وتد رسيما في مدارس الجمعية التي اخذت تتزايد يوما بعد يوم ، حتى ارتبت على ٤٠٠ مدرسة رغم بطش المستعمر وارهابه وجبروته ، ورغم القوانين الصارمة التي كانت تقضي بالقاء القبض على المدرس الذي يضبط متلبسا بتعليم اللغة العربية ، بينما تعطى الحرية للسارق والزاني والفاجر والاناق والمخرب .

ونجح الابراهيمي في ابراز الشخصية الجزائرية العربية المسلمة ، بعد ان اجاليا المستعمر خيالا ووهما . ونجح في تجديد شباب الاسلام ، ومسح عنه الغبار الذي تراكم على مر السنين بفعل الاستعمار والتبشير .

ونجح الابراهيمي في خلق جيل من الشباب العربي الجزائري المؤمن بعروبته ووطنه ودينه . وكان ذلك الجيل هو نواة جيش التحرير الجزائري الذي خاض معركة المليون شهيد ، وحرر الجزائر من استعمار مدة دام ١٣٢ عاما . ولولا جهود جمعية العلماء المسلمين في الجزائر لكفاح رئيسها ابن باديس والابراهيمي لما قامت ثورة الجزائر في غرة نوفمبر ١٩٥٤ . ولولا الجيل الذي رباه البشير الابراهيمي ومعاونوه من علماء الجزائر ، لما استطاع شعب الجزائر ان يقدم للثورة وقودها من شباب محمد الذين انتظموا في قوافل لا عد لها ولا حصر ، باذلين دماءهم وارواحهم في سبيل الله وفي سبيل الوطن .

وعلى الجانب العربي العام وقف البشير الابراهيمي حياته على الذود عن حياض العروبة والاسلام ، من الرباط غربا الى اندونيسيا شرقا ، ومن القرم والتركستان شمالا الى حضرموت جنوبا ولم يكن في يوم الايام اقليميا يعمل للجزائر وحدها او للشمال الافريقي وحده . ولم يكن عنصريا يدعو الى قومية ضيقة . بل كان انسانا واسع الافق كبير القلب نقي الضمير ، يدعو الى وحدة اسلامية تسبقها بالضرورة وحدة عربية تقوم على دعائم راسخة من الايمان بالله والايمان بهذه الامة التي شرفها الله بحمل رسالة الاسلام .

والبشير الابراهيمي الذي خبر دسائس الاستعمار وذاق من ويلاته وجرائمه ووحشيته ، لم يترك فرصة تمر الا اهتبلها لتسخير قلمه ولسانه وطاقاته العديدة ، من اجل الدفاع عن الاقطار العربية التي ابتليت بالاستعمار .

دافع عن حرية المغرب الاقصى ، وعن حرية تونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق وفلسطين ، كما دافع عن مسلمي الهند وروسيا والصين . وعاش الابراهيمي معارك الكفاح والتحرير التي خاضتها الامة العربية من محيطها الى خليجها . عاش احداث العروبة والاسلام وتفاعل معها وانفعل بها . دعا الى الاتحاد والوحدة ، وندد بالانقسام والفرقة ، اتهم الغرب المستعمر وابطل دعواه وانكاره عروبة الشمال الافريقي وكونه من صميم ديار العروبة والاسلام .

وتغنى الابراهيمي بالازهر وتراثه في الثورات المصرية المتتابعة وفضله على العالم الاسلامي . ودعا الى تطوير التعليم في الازهر ليزاوج بين علوم الدين وبين علوم الدنيا ، ويهيىء ابناءه لان يكونوا رجال دين ودنيا .

ولفلسطين من كفاح الابراهيمي سهم وافر . فقد اعتبرها قضية العرب والمسلمين الاولى ، ومشكلة المشكلات في العصر الحديث . نبه لاخطار الصهيونية وحذر من الاهيب اليهودية العالمية ومكرها وخداعها قبل ان تقع الواقعة . وحين ضاعت فلسطين اصيب الابراهيمي بجرح لم يندمل ابدا . وبكاها دما ، وندد بالعرب والمسلمين الذين فرطوا في الامانة وما استطاعوا نيل شرف حماية بيت المقدس من الغزو الصليبي الجديد ، الذي تستر في هذه المرة من وراء راية صهيون . ولا غرابة في هذا ، فالابراهيمي كان يرى ان فلسطين احق بالحماية والرعاية من الجزائر وطنه الاول . وكان يرى ان بيت المقدس جزء من الدين الاسلامي ، وواجب الدفاع عنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة .

ولم ترض همة الابراهيمي بالاطلاع على المشكلات العربية الاسلامية والاسهام في حلها وهو جالس في وطنه الاول الجزائر ، وانما رحل الى المشرق العربي والمشرق الاسلامي اكثر من مرة زار بلاد العرب والمسلمين وعاش في سوريا ومصر مهاجرا في سبيل الله مبتعدا عن ظلم الفرنسيس . زار فلسطين والحجاز وتركيا وافغانستان وباكستان واندونيسيا وايران . وكان في جميع اسفاره داعية خير وصحبة وتوفيق ووحدة . فرق في علاقاته بين شعوب الاسلام وبين حكامها ، فاحب الاولى وبذل في سبيلها من علمه وفضله وصحته ، وتعالى على الحكام الذين يسيرون في ركاب المستعمر عدو العرب والاسلام ، ولم يتوان عن لومهم وتوجيه النقد لهم وتبصيرهم بعاقبة ذلهم وخيانتهم . وكان الابراهيمي في حله وترحاله يعرف العرب والمسلمين في مشارق الارض ومغاربها ، بحقيقة المأساة الجزائرية ، فعرف الناس الجزائر بجبالها وسفيرها الابراهيمي .

وفي السنوات التي قضاها الابراهيمي في مصر ، سعدت بان اكون من تلاميذه الذين نهلوا من غزير علمه وتشبعوا من كريم اخلاقه . عرفته في اطوار متباينة من مر الحياة وحلوها ، واشهد

بانه كان على الدوام ذلك الامام العملاق الذى لا تهزه احداث الحياة ولا تفت في عضده او تنال من عزيمته وقوة ايمانه .

ولقد توج الابراهيمي جهاده وكفاحه في تأييده المطلق للثورة الجزائرية . ومنذ اليوم الاول لاندلاعها ، اوقف الابراهيمي نشاط الجمعية وامر جميع اتباعه وانصاره وتلاميذه ومريديه وهم يشكلون خلاصة الشعب الجزائرى ، بتأييد الثورة والالتحاق بكتائب الجهاد .

وفي احتفالات عيد النصر التي اقيمت في الجزائر اول نوفمبر ١٩٦٢ ، رأيت البشير الابراهيمي في احسن ساعات حياته واعظمها . لقد أمّ جموع المسلمين التي احتشدت لاداء صلاة الجمعة في مسجد كتشاوة الذى حوله الاستعمار الفرنسي الى كاتدرائية وظل كذلك طوال مدة الاحتلال الذى دام ١٣٢ ، الى ان عاد الحق لاهله بعد انتصار الثورة .

والقى الابراهيمي خطبة الجمعة مكتوبة على غير عادته ، وكان واضحا ان المناسبة العظمى قد هزته وفرضت على شيخوخته الجليلة ان يسجل ما كان يجول في خاطره على الورق . وجاءت الخطبة درسا وفيضا في السياسة والتاريخ والدين لا تعالي فيها ولا شماتة ، وقد لخصت الخطبة تاريخ الجزائر بما فيه من دروس وعبر ، وعبرت عن فرحة الحاضر وآمال المستقبل . وكانت في نظرى خطبة وداع فاه بها فارس عالم بطل ، اثقلت كاهله العلة وارهقته تبعات الجهاد الطويل . وكنت وانا استمع الى خطبته ترن في اذني كلمات البطل اسامة بن المنقذ :

مع الثمانين عاث الدهر في جلدى ... وسائني ضعف ساقي واضطراب يدى
فان كتبت فخطي جد مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يد عن حملها قلما ... من بعد حطم القنا في لبة الاسد

على ان الجهاد الذى كان باديا على الشيخ البطل لم يحجب عنا ابتسامة الرضى واشراقة فرحة الحمر التي كانت تنفذ الى اعماق الجماهير الملتفة من حول الشيخ فتفهم تفسيرها :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنى

وبعد ، فاني لا استطيع في هذه الكلمة القصيرة ان ادون جزءا يسيرا من تاريخ الشيخ العالم البشير الابراهيمي ، لان تاريخه يحتاج للاحاطة به الى مؤلف خاص تدون فيه اعماله ومفاخره ومآثره وبطولاته وتضحياته .

اما خسارة العروبة والاسلام بفقد البشير الابراهيمي فعظيمة لا يعوضها الا الله القادر على هداية شبابنا ودفعهم الى ترسم خطاه والسير على نهجه .

رحم الله شيخنا العزيز واسكنه فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا .

اربد (شرق الاردن) " عبد الله التل "